الدراسات المصطلحية في التراث الإسلامي عند المستشرقين

أ/ المدبوح سعيد
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
فاس - المغرب

تناول المستشرقون تراثنا بالكشف والجمع والفهرسة، وعمدوا إلى نشره وتحقيقه وترجمته ودرسه والتصنيف فيه. وقد شملت أبحاثهم مجالات متعددة حيث بدأوا في القرن التاسع عشر بإنشاء جمعيات لمتابعة الدراسات الاستشراقية، في مختلف بلدان أوروبا وأمريكا. فنشطت هذه الجمعيات في إصدار المجلات والمطبوعات المتنوعة، ثم أقاموا مؤتمرات إقليمية ودولية وندوات ولقاءات، أتاحت لهم الفرصة لزيادة التنسيق وتوثيق أواصر التعاون، وتجنب ازدواج العمل حرصا على تجميع الجهود وعدم تبديدها في أعمال مكررة.

ونحن إذ يخامرنا نفس الهدف، وهو عدم تبديد الجهود، نرى من المفيد ألا نتجاهل هذا التراث الضخم من النصوص والبحوث التي أنتجها المستشرقون. وفي هذا الصدد يقول نجيب العقيقي [1] : «فإن نحن طوينا هذا الجهد تنكرنا للأمانة العلمية في البحث عن الحقيقة الموضوعية ... فكأننا نأبى أن يكون تراثنا جزءا لا يتجزأ من الحضارة الإنسانية؛ وأن طي نشاطهم يبعث على الريبة وسوء الظن والقطيعة، في حين أن الحضارة الإنسانية لا تقوم لها قائمة إلا على التعاون في نشر ذخائر كل أمة في العلوم والفنون والآداب على تنوعها وأوجه الشبه والاختلاف فيها» .

ولاينكر أحد ما قام به المستشرقون من جهد في الحركة الثقافية الشرقية إلا أن لهم دورا سيئا في تشويه كثير من الحقائق، وبالذات الدينية - جهلا أو عمدا - مما أدى إلى مسخ الكثير من الجوانب المشرقة، ونقلها بصورة مبتورة .

لذا، يتوجب علينا - ونحن نسعى لجني ثمار ما أنتجه هولاء المستشرقون - أن نضع مؤلفاتهم في الميزان في اطار عملية فرز وتصفية، لقبول ما يناسبنا ورد ما يخالفنا. وفي هذا إظهار لحقيقة الأمور، وإسقاط للمزاعم والشكوك التي أثاروها حول الإسلام والحضارة الإسلامية .

والدراسات المصطلحية هي واحدة من المجالات التي اهتم بها المستشرقون، وكان ذلك منذ أوائل القرن الثاني عشر الميلادي، حيث ظهر أول معجم عربي بأوروبا، [2] تلته معاجم لغوية أخرى عربية أو تمثل العربية طزفا فيها، ثم ما لبثوا أن وضعوا مختلف المعاجم المتعددة الأغراض في مختلف العلوم والفنون الإسلامية، وصنفوا تآليف في المصطلح، والترجمة، ومصنفات جامعة كالموسوعات ودوائر المعارف وغيرها .

1- المعاجم والقواميس :

كانت المعاجم اللغوية العربية أساسا للمستشرقين، ولا تزال تعينهم في ابحاثهم وقد أدى اهتمامهم المتزايد باللغة العربية التي هي مفتاح الثقافة الإسلامية إلى تصنيفهم للعديد من القواميس الصغيرة والكبيرة التي تجمع بين العربية وغيرها من اللغات الأوربية المختلفة، حيث أنجزوا أول قاموس لاتيني عربي في القرن الثاني عشر الميلادي. ثم توالى وضعهم المعاجم، فكان من أوائلها: [3]

* "المعجم العربي القشتالي" للمستشرق الإسباني بدرو دي الكالا (Pedro de Alcala) اشتمل على 22 ألف كلمة مع مقدمة في اللهجة العربية العامية بغرناطة. نشر أولا بغرناطة سنة 1505 م، ثم أعيد نشره بتحقيق ميخائيل الغزيري سنة 1805 م .

* "المعجم العربي اللاتيني" لليون الإفريقي (Layon l'Africain) (ت1552م)، ألفه بروما في أواسط القرن السادس عشر .

* "المعجم العربي" للمستشرق الهولندي رافلنجيوس (Raphelengius) نشره ابنه وطبع مرارا أولها سنة 1613 م .

* و"المعجم العربي اللاتيني" للمستشرق وليم بدويل (Bedwell) في سبع مجلدات (1615) .

* و"كنوز اللغة العربية" للأب جيجاي المستشرق الإيطالي (Giggei) في أربع مجلدات كبيرة عن القاموس للفيرو زبادي، وكان أكبر معجم عربي طبع في أوربا (1636 م) .

* و "القاموس العربي السرياني اللاتيني" (1636 - 40) للأب أوبيتشني (Obicini) .

* و "قاموس الفصحى والعامية"، مع ترجمتين : إيطالية ولاتينية (1639) للأب جرمانوس (Germanus) .

* و "المعجم العربي اللاتيني" (1653) لجوليوس (Golius) المستشرق الهولندي، ظل مرجعا للمستشرقين حوالي 175 سنة إلى أن ظهر معجم فرايتاج (Freytag) .

* و "معجم السبع لغات" (الإيطالية والفرنسية واللاتينية والعربية الفصحى والعربية العامية واليونانية الفصحى واليونانية العامية) للأب كايروت (Querot) (1988 - 1653) .

* و "مجمل معجم اللغات السامية" بسبع لغات لكاستل (Castell) المستشرق الإنجليزي (ت 1669) .

* وكنز اللغات الشرقية للمستشرق البولوني ميننسكي (Meninski) وهو معجم في جزئين باللغات التركية والفارسية والعربية مع ترجمة مفرداته إلى اللاتينية والفرنسية والألمانية والبولونية. نشر لأول مرة في فيينا سنة 1680 م .

* و "قاموس العربية والقشتيلية" للأب كورخيادا (Corgiada) .

* و "القاموس الإسباني اللاتيني العربي" في ثلاثة أجزاء (1787) للأب كانيس (Canes) .

ولما كان القرن التاسع عشر، اشتدت حركة الاستشراق اشتدادا عظيما لقيام الحكومات الغربية بدعمها، فتعدد دارسو لغتنا والمتبحرون في آدابها، وتفرغ المستشرقون للبحث، ومنحتهم أممهم المال والوقت، فتسنى لهم بذلك مضاعفة الجهد، لإصدار المزيد من المعاجم على اختلاف أنواعها، نذكر منها :

* "المعجم العربي اللاتيني" للمستشرق الألماني فرايتاج (Freytag) في أربعة أجزاء (1830 - 1837) وعن أخذ كازيمرسكي (Kazimirski) قاموسه .

* و "كنز المصاحبة" للمستشرق الفرنسي مارسيل (Marcel) (1837) وهو معجم فرنسي عربي بالفصحى والعامية .

* و "المعجم العربي الفرنسي" للمستشرق البولوني كازيمرسكي (Kazimirski) اعتمد فيه على مصادر اللغة العربية واشتقاق الفصحى والعامية ومفردات لهجات الجزائر والمغرب، وضبطه على أفضل المعاجم الأوربية، وعارضه بالمعاجم العربية، مستعينا بمعجم فرايتاج (1646 - 1847) .

* و "مد القاموس" للمستشرق الأنجليزي إدوارد لين (Lane) وهو معجم عربي أنجليزي في ثمانية مجلدات، جمع فيه لأول مرة في تاريخ المعاجم العربية المفردات من أمهات كتب الأدب مما لم يرد في المعاجم القديمة أو في معجمي جوليوس (Golius) وفرايتاج (Freytag) (1863) .

واستمر تصنيف المستشرقين للمعاجم في القرن العشرين، فكان منهم الإنجليزي كاكيا (Cachia) والإيطاليون : دي توشي (Tucci di) وجريفيني (Griffini) ودي كاستيلنوفو (Castilnoffo di) وأتوري روسي (Ettore Rossi)، وديلافيدا (Della Vida). والفرنسيون : باسه (Basset)، ووليم مارسه (Márçais) وبروفنسال (Provençal). والألمانيون : فيشر (Fischer). وكرايمير

(Kraemer) وفير (Wehr). والروسي بارانوف (Baranov)، والإسباني أسين بالاثيوس (Asin Palacios)، والأمريكي إيروين (Erwin)، والسويسري سوتير (Suter) والنمساوي أمبروس (Ambros) وغيرهم.

ولقد أفنى الكثير من المستشرقين أعمارهم في إعداد مثل هذه المعاجم، فأوجست فيشر (August Fischer) (ت 1949) مثلا، قضى أربعين عاما في جمع " معجم اللغة العربية القديمة "، وكاستل (Castell) قضى في تصنيف مجمل معجم اللغات السامية 18 سنة بين 16 و 18 ساعة في اليوم، وأنفق عليه جميع ثروته. عانى بعدها من الفقر ألوانا. وإدوارد لين (Edward Lane) نزل بمصر (1825 - 28) متزيناً بالزي العبري، مصليا في الجوامع، متسميا باسم منصور أفندي وأتقن العربية كتابة وخطابة، ورجع إلى مصر (1832 - 35) ثم (1842-44) من أجل وضع معجم عربي شامل (مد القاموس)، وكان يعمل فيه من 12 إلى 14 ساعة في اليوم ثم أفرغ الخمس والعشرين سنة التي تبقت من حياته في إنجازه.

وبارانوف (Baranov) قضى عشرين سنة في تصنيف القاموس العربي الروسي. ورغم كل هذه المجهودات التي قام بها المستشرقون (في مجال المعاجم والقواميس اللغوية) يرى مانغريد أولمان [4] بأنها لم تأت بجديد لجهة اللغة، لأن علماء اللغة العرب أشبعوا مادتهم درسا، وأوفوها حقها شرحا وتحليلا.

وهناك من العلماء المسلمين من تصدى لبعض معاجم المستشرقين المليئة بالأخطاء والمغالطات كما هو الشأن بالنسبة للمنجد، المعجم العربي الحديث الذي ألفه الأب اليسوعي لويس معلوف، طبع لأول مرة ببيروت سنة 1908، ثم أعيد طبعه مرارا. وقد تهاوى عليه النقد من كل جانب لأسباب منها: [5]

* أخذه بالأضعف من لغات العرب، وكثرة أخطائه.

* نشره لكل ما يسيء إلى العرب في تاريخهم وسمعتهم وأخلاقهم ورجالهم.

* لسعه لكل ماله علاقة بالدين الإسلامي .

* إهماله لكل أمجاد المسلمين .

* إبرازه لكل ماله علاقة بالنصرانية ولو على باطل أحيانا .

إضافة إلى مافيه من مغالطات دينية، وتحريف وتشويه واضحين للإسلام والمسلمين، وإهمال وغموض في توضيح المصطلحات الإسلامية، مع التفصيل والتوضيح لمصطلحات الكنيسة، كما هو واضح في شرحه لكلمة "قرآن" وكلمة "انجيل" فيقول في القرآن بأنه «كتاب المسلمين» بينما يقول عن الإنجيل أنه «كتاب أتى للأنام ببشرى الخلاص على يد المسيح الفادي»، إلى غير ذلك من الهفوات التي تصدى لها أمثال الأستاذ منير العمادي (دمشق)، والعلامة عبد الله كنون (المغرب)، والشيخ إبراهيم القطان في كتابه (عثرات المنجد) ولم يتناول منه إلا قسم الإعلام وحده، فأبرز له (2500 غلطة) .

والمستشرقون من جهتهم يعيبون على المعاجم العربية، ضيق دائرة الإهتمام ومحدوديتها بالنظر إلى رحابة الأفق الثقافي الإسلامي، ويعتبرون أن علماء اللغة المسلمين أسقطوا الجذور والمصطلحات التي وضعها علماء التاريخ والجغرافيا والطب والفلك والرياضيات. [6] وهذه الإعابة، دفعت عددا من المستشرقين للتفكير في سد النقص الحاصل في المعاجم العربية معتمدين تتبع الاستعمال اللغوي للفظة الواحدة. وهكذا ظهر «ذيل المعاجم العربية» لرابينهارت دوزي (Reinhart Dozy) سنة 1881، و " مد القاموس " لادوارد لين (Edward Lane) سنة 1863، وقد جمع لأول مرة في تاريخ المعاجم العربية المفردات من أمهات كتب الأدب مما لم يرد في المعاجم القديمة أو معجمي جوليوس (Gelius) وفرايتاج (Freytag) ومنتخبات من القرآن الكريم و "الذخيرة العلمية" لبادجر (Badger) سنة 1881، وهو من أوسع المعاجم وأحلها، إذ ضمنه مفردات المعاجم والمفردات المولدة الحديثة، لإقامته في مالطة، والهند والشرق الأوسط، وبفضل معاونة رزق الله حسون الذي كتب مقدمته بالعربية .

و "إضافات إلى المعاجم العربية" لدلا فيدا (Della Vida) سنة 1954، و "تكميلات للقواميس العربية" لفانيان (Fagnan) سنة 1923. ثم "معجم اللغة العربية القديمة" لفيشر (Fischer) إلا أنه توفي قبل انجاز عمله. وبعده قام عدد من المستشرقين بالإطلاع على ما خلفه، ونتج عن ذلك صدور مجلد عام 1970. يستند إلى ما يقارب الستمائة وثمانين مرجعا صنفت تصنيفا عليماً، ويتضمن ثلاثة وأربعين ألفا من الاقتباسات والاستشهادات .

ولقد عد نجيب العقيقي [7] معاجم المستشرقين من أوفى المعاجم من نوعها على النمط الأوربي، ويرى بأن ذلك راجع لاستدراكهم مافات معاجمنا القديمة من مفردات جمعوها من أمهات الكتب، وإرجاعهم المفردات إلى معانيها الأولى، وذكر المولد منها. وأضاف قائلا : « فأبوحيان، والمسعودي، وابن خلدون، والبيروني ونظراؤهم من الكتاب الذين نشأوا في الأندلس، أو شمال إفريقيا، أو آسيا الوسطى، استعملوا ألفاظاً في غير معانيها التي وضعت لها أصلا أو محدثة أو مبتدعة من اللغات المجاورة، فحققها المستشرقون، وأضافوا إليها - من القرآن وأمهات الكتب - ما لم يرد في معاجم العرب، هذا خلا المعاجم التي خصوها باللهجات العربية - وقد اعتمدوا على مخارج الأصوات فيها - في تلك البلدان وحيثما بلغ الفتح العربي ... ». [8]

ولم يهتم المستشرقون بمعاجم اللغة فحسب، بل صنفوا أيضا معاجم أخرى في ميادين مختلفة من ذلك :

* "قاموس المصطلحات الفلسفية واللاهوتية بالعربية واللاتينية" (1729) للأب كورخيادا (Corgia da) .

* و "المعجم المفصل في أسماء ملابس العرب" (1845) لدوزي (Dozy) .

* و "المصطلحات العسكرية الجديدة بالعربية والتركية والفارسية" (1940) لأتوري روسي (Rossi) .

* و "الكلمات الأجنبية في القرآن" (1878) لفرانكيل (Frankil) .

* و "القاموس الروسي العربي للمصطلحات السياسية والاقتصادية والفلسفية" (1937) لبارانوف (Baranov).

* ومعجم أسماء الأماكن من أصل عربي في الأندلس (1944) لآسين بالاثيوس (Asin) كما اتجه نفر من المستشرقين إلى القرآن الكريم، فعملوا على تيسير الرجوع إليه واستخراج ما يحتويه، فأنشأوا فهارس مختلفة الضروب، كان من أكبرها نفعا كتاب "نجوم الفرقان في اطراف القرآن" لمؤلفه المستشرق الألماني فلوجل (Flugel) الذي طبع لأول مرة عام 1842، اعتضد به محمد فؤاد عبد الباقي رحمه الله، وجعله أساسا لمعجمه المسمى بـ " المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ". وقد ساعده ذلك على مراجعة معجم فلوبل مادة مادة، على معاجم اللغة وتفاسير الأئمة اللغويين، وناقش مواده، حتى أرجع كل مادة إلى بابها، ولم يقنع من نفسه بذلك بل اختار من أجلة العلماء المغايير وصفوة الأصدقاء المخلصين لجنة، عرض عليهم فيها مواده مادة مادة، فما كان بادي الصحة أقروه، وما خفى عليهم وجد الصواب فيه، فزعوا إلى المعاجم يستوضحونها وإلى التفاسير يستلهمونها. وهكذا تسنى لهم أن يصححوا الكلمات التي أخطأ فلوجل (Flugel) في ردها إلى موادها .

ومادام كل بني آدم خطاء، فها هو ذا محمد فؤاد عبد الباقي يتعرض اليوم بدوره للإنتقادات بسبب أخطاء وجدت في معجمه المفهرس، حسب ما جاء في جريدة العلم المغربية.[9] ومن معاجم المستشرقين أيضا، "تفصيل آيات القرآن الحكيم" وضعه بالفرنسية جول لابوم (Gol La Pomme) ونقله إلى العربية محمد فؤاد عبد الباقي، مع رد آياته إلى أصلها القرآني، وقد عمد مؤلفه إلى وضع جميع الآيات التي موضوعها واحد في باب واحد، فجاء مقسما إلى 18 باباً هي : التاريخ، محمد صلى الله عليه وسلم ، التبليغ، بنو إسرائيل، التوراة، النصارى، مابعد الطبيعة، التوحيد، القرآن، الدين، العقائد، العبادات، الشريعة، النظام الإجتماعي، العلوم والفنون، التجارة، علم تهذيب الأخلاق والنجاح .

أما في مجال الحديث الشريف فقد صنف المستشرقون "المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي" الذي يشمل كتب الحديث السنة المشهورة بالإضافة إلى مسند الدارمي وموطأ مالك بن أنس، ومسند الإمام أحمد بن حنبل. ولقد بدأ العمل في إنجاز هذا المعجم منذ 1922 تحت إشراف فنسنك (Weisinck) الذي كان في الحقيقة يريد اخراجه إلى الواقع منذ سنة 1916 أو ما قبلها. وفي سنة 1936 صدر المجلد الأول منه. وبعد وفاة فنسنك سنة 1939 واصل عملية تحرير المجلد الثاني السيد منسنج (J.P Mensing) فأصدره سنة 1943، ثم صدر المجلد الثالث سنة 1955 الذي ساهم في إنجازه المستشرقون الهولنديون : السية و.ب.د هاس (W. P . de Haas) والسيد ي . ب . فن لون (J . B . Vanloon)، والسيد ي . ت . د . دي بروين (J . T . P . de Bruijn)، والسيد هـ .سي رويتر (H.G.Ruyter) والدكتور سي.سي برخ(C.C.Berg).

أما المجلدات الرابع والخامس والسادس والسابع، فقد ظهرت تحت رعاية الدكتور ي . بروخمان (J . Brugman)، آخرها هو المجلد السابع تم إصداره سنة 1969. وفي سنة 1987 صدر المجلد الثامن وهو عبارة عن فهارس هذا المعجم، وقد قام بإعداده السيدان ويم رافن ويان يوست ويتكام (J.J. Witkam) (Wim Raven) .

وتجدر الإشارة إلى أن المستشرق فنسنك الذي أعطى الإنطلاقة الأولى لمشروع المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، عيبَ عليه اعتماده على مصنفات غير محققة، إذ كان عليه - في نظر البعض - أن يبدأ بإعداد طبعات محققة لتلك المصنفات المعتمدة، قبل أن يقوم بإعداد المعجم. إلا أنه كان يرى بأن العمر الضروري لإنجاز مثل هذا العمل كان يُعوزه، وبالتالي فضل الإعتماد على نسخ تلك النصوص كما كانت في المتناول. وهذا يعني في نفس الوقت التسليم بعدد من الأخطاء في تلك النصوص غير المحققة تحقيقا علمياً. ولم يتفاد الذين واصلوا عمل فنسنك ما وقع فيه بل اعتمدوا هم أيضا معظم طبعات تلك النصوص نفسها. وفيما بعد قام محمد فؤاد عبد الباقي بنشر

طبعات حديثة لكل من "صحيح" مسلم و "سنن" ابن ماجة و "موطأ" الإمام مالك. فاحتفظ فيها بالأرقام الإحالية المطابقة للتي وضعها فنسنك في "المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي". (10)

ويعتبر المرحوم محمد فؤاد عبد الباقي واحداً من المساهمين في هذا العمل، فقد فسح المجال دائماً لمحرري " المعجم " متى يستفيدون من معارفه الواسعة حول السنة النبوية، مقدماً لهم في مناسبات عديدة نصائح في غاية الأهمية، حول قضايا جوهرية في التحرير، خاصة خلال مرحلة النصف الأول من المشروع.

وكان أيضا لنا بشري الدار القيمة في بهيوندي قرب بمباي (الهند) نصيب في ترشيد هذا المشروع، وبالأخص المدير العام لهذه المؤسسة السيد عبد الصمد شرف الدين. وقد استدركوا بدقة وحماس عددا كبيرا من الإضافات والتصحيحات التي أغنت " المعجم " .

ومن المعاجم التي أنتجها المستشرقون أيضا لتسيير البحث في كتب الحديث النبوي الشريف."A Handbouk of Early Muhammadan Tradition" وهو معجم مفهرس عام تفصيلي وضع للكشف عن الأحاديث النبوية الشريفة المدونة في كتب الأئمة الأربعة عشر الشهيرة. وذلك بالدلالة على موضع كل حديث في صحيح البخاري وسنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والدارمي، ببيان رقم الباب وفي صحيح مسلم وموطأ مالك ومسندي زيد بن علي وأبي داود الطيالسي، ببيان رقم الحديث، وفي مسند أحمد وطبقات ابن سعد وسيرة ابن هشام ومغازي الواقدي ببيان رقم الصفحات. وقد ألفه المستشرق الهولندي فنسنك باللغة الإنجليزية ونقله إلى اللغة العربية المرحوم محمد فؤاد عبد الباقي مسترشداً في ذلك بآراء السيد رشيد رضا وسماه "مفتاح كنوز السنة". وقد مكث في ترجمته أربع سنين وكان لا يترجم معنى من المعاني حيث يرجع إلى الأحاديث في مصادرها .

2- الموسوعات :

إلى جانب المعاجم والقواميس، انصب اهتمام المستشرقين أيضا على الموسوعات، فألفوا الموسوعة العربية الميسرة، وهي ترجمة حرفية لدائرة معارف جماعة كولومبيا. وضعت تحت إشراف علماء صهيونيين، وترجمها إلى العربية الأستاذ شفيق غربال وكوكبة من الباحثين .

والموسوعة الإسلامية الميسرة التي أعدها (جب وكريمرز). وهي خلاصة دائرة المعارف الإسلامية، ترجمها إلى العربية الدكتور راشد البراوي .

وقد كتب الأستاذ نور الجندي مقالة تحت عنوان "أخطاء دوائر المعارف والموسوعات العالمية" نشرت في العددين السادس والسابع من مجلة "منار الإسلام": (11)

- في العدد السادس : كشف أخطاء ومغالطات دوائر المعارف والموسوعات العالمية، وعرض لما جاء في دوائر المعارف البريطانية والأمريكية ودوائر المعارف لاروس. كما ركز على دائرة المعارف الإسلامية. ورد على ما جاء فيها ثم أشار إلى قاموس المنجد ومافيه من أخطاء .

- وفي العدد السابع : واصل كشفه لمغالطات الموسوعة العربية الميسرة، والموسوعة الإسلامية الميسرة .

ومن النتائج التي توصل إليها في معرض دراسته للموسوعة العربية الميسرة، أنها لا تحمل أي وجهة عربية إسلامية لما تتناوله من موضوعات. فهي تتنكر أساسا للسنة الهجرية والتاريخ الهجري في كل ما تورده من مواد، خاصة فيما يتعلق بعصر النبي ﷺ وعصر الخلفاء. والمواد الإسلامية ضعيفة جداً وفاترة ومدرسية إلى أبعد حد، وليس فيها من السعة والعمق ما يوجد في مواد أخرى، فبالمقارنة مثلا بين مادة (مسجد) ومادة (مسرح)، نجد أن المسجد قد كتبوا عن خمسة عشر سطرا في حين كتبوا عن المسرح 170 سطراً. هذا بالإضافة إلى غلبة طابع السيطرة الصهيونية على المواد وخاصة فيما يتعلق بفلسطين وتاريخ الأديان .

وقد أحصى الأستاذ علي جواد الطاهر على الموسوعة العربية الميسرة (370) خطأ تاريخياً. وقد أورد ذلك في بحث ضاف نشره في مجلة "المجمع العلمي" بدمشق عام 1969 م .

أما بالنسبة للموسوعة الإسلامية الميسرة، التي هي خلاصة الفكر الغربي (خلال الأربع قرون الأخيرة). فقد قام بإنجازها مستشرقون يهود ونصارى، دسوا فيها سموماً تهدف إلى تشويه الفكر الإسلامي وإثارة الشبهات حول شخصياته. فمادة (محمد) ﷺ ، قام بكتابتها المستشرق بوهل (Buhl) الذي يعد من أكثر المستشرقين حقدا على الإسلام وعلى النبي ﷺ. كذلك أعدت مادة (قرآن) بغرض التشكيك فيه .

وقد ألف الأستاذ أحمد عطية " القاموس الإسلامي " كبديل لهذه الموسوعة، لكنه توفي رحمه اللّه قبل أن يتمه. فقد كان حريصاً على تصحيح جميع ما فيها من أخطاء .

3- دائرة المعارف الإسلامية :

وتعتبر المرجع الأساسي لفكر المستشرقين. بدأوا في إنجازها عندما شعروا بالحاجة إلى دائرة معارف تجمع شتات دراساتهم عن الإسلام والمسلمين. فجاءت مقالاتها كخلاصة لما توصل إليه الدارسون الغربيون من نتائج في مختلف الموضوعات الإسلامية. صدرت طبعتها الأولى في أربعة مجلدات وملحق باللغات الأنجليزية والفرنسية والألمانية بين سنتي (1913 و 1934)، وقد شارك في تصنيفها عدد من المستشرقين من مختلف الدول الأوربية. منهم: هوتسما (Houtsma)، وڤنسنك (Weisinck) وأرنولد (Arnold)، وبروفنسال (Provençal)، وباسه (Basset)، وهارتمان (Hartmann)، وهيورث (Heiworth)، وجولد زيهر (Goldziher)، ومرجليوت (Margoliouth)، وبيكر (Becker)، ومينورسكي (Minorsky)، وغيرهم. ولم يسهم فيها من الباحثين المسلمين إلا قلة نادرة. منهم كوبرى زادة فؤاد من تركيا، ومحمد شنب من الجزائر .

وفيما بعد، تجاوز المستشرقون هذه الدائرة المتداولة، وقاموا بإصدار دائرة معارف إسلامية جديدة، أعيدت فيها كتابة المقالات بناء على ما صدر من بحوث حديثة، وما نشر أو اكتشف من مخطوطات، فظهرت الطبعة الجديدة باللغتين الأنجليزية والفرنسية من عام 1954 حتى عام 1977، ومازالت تخطوا إلى الأمام بعد أن صدر مجلدها السابع سنة 1993 .

ومن أعلام المستشرقين المعاصرين الذين شاركوا في إعادة تأليف هذه الموسوعة : جب (Gibb)، وكرامرز (Kramers)، وبروفنسال (Provençal)، وشاخت (Schacht) وبيلا (Pellat)، وديلافيدا (Della Vida)، وجوميه (Jomier)، وماسيه (Massé)، وليتمان (Littmann)، وغيرهم. وتعاون معهم عدد غير قليل من أساتذة المعاهد والجامعات في البلاد الإسلامية .

وقد أجمعت آراء الباحثين على أن دائرة المعارف الإسلامية تضم مجموعة كبيرة من الأخطاء التي يجب التنبيه لها، والسموم التي ينبغي كشفها والتصدي لها. وهذا ما حاولت أن تقوم به اللجنة المصرية التي عملت على ترجمة جزء كبير من الطبعة الأولى إلى العربية سنة 1933. فكانت التعقيبات النقدية التي قام بها أعضاؤها أمثال أحمد محمد شاكر والشيخ محمد عرفة وأمين الخوالي. دليلا على أن هذه الدائرة تضم في طياتها ما يتنافى مع معتقداتنا الدينية وثقافتنا الإسلامية. فمادة (إقامة) مثلا التي حررها جوينبل(Th.W.Juynboll) جاء فيها:« ويقول متوخ(E.Mit twoch)... إن المسلمين استعاروا عبارات الإقامة(للصلاة) من البركات التي تتلى في صلاة اليهود. في حين يقول بيكر(G.H.Becker)... أنها نشأت من الأذان الذي نسج فيه على منوال القداس عند النصارى... ».[12] وقد علق الشيخ محمد عرفة على هذه الافتراءات بقوله:« ...وكل ذلك غير مسلم لهم،وكان ينبغي أن يبينوا الصلة التي بين الإقامة والبركات التي تتلى في صلاة اليهود، والصلة التي بين الأذان والقداس عند النصارى لنعلم قيمة دعواهم...والذي في صحيح البخاري، وكتب السير، يفيدان أن الأذان شرع مراعى فيه عدم التشبه باليهود والنصارى... ».[13]

ولقد لخص أنور الجندي [14] أخطاء دائرة المعارف الإسلامية في عشرة نقط من ذلك :

- سيطرة البدع الدخيلة في الدين الإسلامي على مواد الموسوعة باستفاضة مثيرة، حتى ليظن الباحث أنها من أصول الإسلام .
- القصد المتعمد في الجمع بين أساطير البدع وحقائق الشريعة .
- التحامل على عدد كبير من علماء الإسلام .
- العمل على إبراز المفاهيم التي تعارض مفهوم أهل السنة والجماعة، بإعلاء كل ما يتعلق بالفرق الضالة .

هذا، وعلى الرغم مما لنا - نحن المسلمين - على هذه الدائرة من مآخذ كثيرة، فإنها مع ذلك تضم بين دفتيها معلومات قيمة، من شأنها أن تساعد الباحثين والدارسين بما تقدمه لهم من مصادر ومراجع في آخر كل مادة، كما أنها تساهم في إحاطة الناس بأحوال ملايين المسلمين، وإطلاعهم على تاريخهم وجغرافيتهم ودينهم وعلومهم وآدابهم وفنونهم وتراجم المشهورين من رجالهم : ولكن بطريقة تلائم تطلعاتهم الإستعمارية والتبشيرية .

4- نماذج من المهتمين بالدراسات المصطلحية :

سوف لن يكون بوسعنا في بحث متواضع كهذا أن نذكر جميع المستشرقين الذين كان لهم اهتمام الدراسات المصطلحية. بل يحتاج ذلك إلى دراسة مستفيضة، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله. لهذا نكتفي بالحديث عن واحد من المساهمين في هذا المجال وهو لويس ماسينيون (L.Massingnon) الذي أفنى حياته في دراسة الثقافة الإسلامية، حيث اهتم بالتاريخ العقيدي والفكري للإسلام. وقد نال التصوف أكبر حظ في أعماله. ومعظم الدراسات المتعلقة بالتصوف الإسلامي في دائرة المعارف الإسلامية بقلمه. وكان من بين ما كتبه مادة (شطح) وهي حافلة بسموم لاحد لها في عرض سيئات الفكر الصوفي، كقول البسطامي : « سبحاني سبحاني، إن لوائي أعظم من لواء محمد، طاعتك لي يارب أعظم من طاعتي لك » .

ولما انتدبته الجامعة المصرية أستاذا لتاريخ الفلسفة (1912 - 1913) ألقى بالعربية أربعين محاضرة في تاريخ المصطلحات الفلسفية، صدرت تحت عنوان "محاضرات في تاريخ الاصطلاحات الفلسفية العربية" يبدأ فيها بذكر المصطلح العربي إن كان موجودا، ثم يتعقب تطور معانيه عند مختلف المذاهب الفلسفية الإسلامية، ثم الرجوع للأصل اليوناني، واتباع نفس المنهج معه . مع الحرص على ذكر المقابل الفرنسي والأنجليزي وأحيانا الألماني واللاتيني أما إذا كان المصطلح مستحدثا فهو يتولى ترجمته إلى اللغة العربية، وقد اهتم في هذه المحاضرات بالتصوف خاصة، فمعظم المراجع التي يذكرها مراجع صوفية، ويكاد يكون المرجع الأساسي في كل المحاضرات هو "رسائل إخوان الصفا" . والمحاضرات الأربعون تتناول كافة فروع المعرفة، أو كافة فروع الفلسفة بمعناها اليوناني القديم، بمعنى أنها تعرض للمصطلحات المنطقية، والرياضية والطبيعية والميتافيزيقية، والنفسية، والاجتماعية والدينية.

كتاب آخر لما سينيون في المصطلح، هو "بحث في أصول المصطلح الفني في التصوف الإسلامي" (طبعة جديدة / باريس 1954) ذكر في مقدمة نبذة تاريخية عن الدراسات المصطلحية في ميدان التصوف عند المستشرقين، بدءاً بدوزي (Dozy) ومعاصريه، فلوجل (Flugel) واسبرنجر (Sprenger). وبين كيف تضاعفت هذه الدراسات خلال مدة وجيزة. ثم صنفها إلى ثلاث طرائق :

- **الطريقة الأولى :** تحليلية، وتتعلق بالكتابات القديمة، هدفها نشر المعاجم الشرقية المستوعبة لأكبر قدر ممكن من المصطلحات. ثم وضعها إما من طرف الطبقة الثانية من القدماء، أو من طرف العلماء المشهورين الذين يحاولون التوفيق بين المذاهب المتناقضة، ولكنهم ينتمون إلى العصور المتقدمة. وهذه الطريقة أسّسها فلوجل (Flugel) وسار على نهجها نيكلسون (Nicholson) .

- **الطريقة الثانية :** تأليفية وتعريفية، تهدف إلى دراسة المفردات الفنية بصفة غير مباشرة، عن طريق نقد دورها في البنية الإعتقادية التي تستعمل

فيها. وهذه الطريقة التي تتطلب - أولا وقبل كل شيء - معرفة فلسفية واسعة هي التي استعملها آسين بلاثيوس (Asin) في عقيدة الغزالي. وكارادي فو في الإشراق للسهروردي (Carra de Vaux) ونيبرج (Nyberg) في ابن عربي .

- **الطريقة الثالثة :** تهدف إلى وضع مفردات متجانسة، بهدوء وتريث وصبر عن طريق التجريد المباشر وبدقة محكمة. وهي الطريقة التي تكلم عنها فيشر (Fischer) ابتداء من 1908 ممهداً لوضع قاموس علمي عربي، مكون من أقوال مؤخوذة مباشرة من نصوص موضوعة بجدية، وقد طبقت هذه الطريقة على الشعراء لأنها تسهل التمييز مابين الصحيح والمحرف في دواوينهم. وهي لازمة بالنسبة للكتاب الصوفيين، لأن الوسيلة الوحيدة لمعرفة ظروف تكوين مصطلحاتهم هو تعقب مؤلفاتهم مع الأخذ بعين الإعتبار مراحل حياتهم العملية.

وهذه الطريقة الثالثة هي التي تبناها ماسينيون في هذا الكتاب بقوله : « من الأفضل أخذ حالة متكاملة، أي أن يكون كاتباً مثالياً ذا أصالة معترف بها بوضوح عبر التاريخ. فالإسلام في بدايته أعطى المحاسبي، والحلاج، والغزالي، فاختير الحلاج من بين هؤلاء ». (15)

فهذا العمل أساسه قائمة مصطلحات كاتب واحد هو الحلاج .

وقد استعرض ماسينيون في هذا الكتاب نشأة التصوف الإسلامي منذ عهد الرسول ﷺ حتى الحلاج، فدرس المصطلحات الكبرى التي ظهرت في تلك الفترة، ووجد أن التصوف قد نشأ عن أصول إسلامية خالصة مستمدة من القرآن الكريم، وسنة الرسول ﷺ وسيرته، وسيرة الزهاد من أصحابه .

وبهذا دحض تلك الآراء الاستشراقية الواهية التي حاولت رد نشأة التصوف الإسلامي إلى تأثيرات أجنبية كالأفلاطونية الحديثة والمذاهب الهندية، وأن القرآن ليس هو المنبع الجوهري للمفكر الصوفي .

ولم يكن لويس ماسينيون وحده الذي اهتم بالمصطلحات الصوفية والفلسفية بل هناك أيضا هيار كليمان (Clément Huart) صاحب "أصول

مصطلحات التصوف الإسلامي" . ولنيشلسون (R.A. Nicholson) "بحث تاريخي في نشأة التصوف وتطوره" مع قائمة بمصطلحات : الصوفي والتصوف، مرتبة ترتيباً تاريخياً. ولبول نويا (Paul Nwya) "تفسير القرآن واللغة الصوفية". ولايسلر (Eisler) "قاموس فلسفي" صدر في ألمانيا سنة 1900. ولفلمنج (Feleming) .

"المصطلحات الفلسفية". ولأندريه لالوند "المصطلحات الفلسفية الفنية والنقدية (الجمعية الفلسفية الفرنسية 1902). ولانكن (Encken) "تاريخ الحدود الفلسفية" الذي بين فيه تقلبات معاني الإصطلاحات .

ولم ينحصر اهتمام المستشرقين في دراسة المصطلحات الصوفية والفلسفية، بل شمل مجالات متعددة منها المفردات القرآنية، وقد أشار مكسيم ردينسون [16] (Rodinson . M) إلى أن أهم دراسات المستشرقين للنص القرآني تناولا فيها المفردات القرآنية بالدرس والتحليل. فرنكرن (Ringgren) تعقب كلمة "إسلام" ومشتقاتها (أسلم، مسلم) وتتبع كلمة "إيمان" وأيضا كلمة "خوف" التي خلص في نهاية الأمر إلى القول بأنها ترجع إلى أصل يهودي ونصراني.

ولبراڤمان (Bravmann) دراسة حول كلمتي "إسلام" و "إيمان". ولبونيشي (Boneschi) "كسب واكتسب ومعناهما في القرآن" (1955). ولبلاشير (Blachère) "نبذة عن النفس في القرآن" (1948). ولاندره ميكيل (Miquel) "أداة إنما في القرآن" (1960). و "أداة حتى" (1968). ولأندره رومان (Roman) "نبذة عن الضمير (هم) في آيات أسماء اللّه" (1972). ولآربري "الأسماء المترادفات في القرآن" (1969) (Arberry). ولفايل (Weil) "التوراة في القرآن" (1835)، ولفرنكيل (Frankel) "الكلمات الأجنبية في القرآن" (1878). ولبرجشتراسر (Begstrasser) "حروف النفي في القرآن" (1911). ولكاشتاليفا (Kashtaleva) "مصطلحات : أناب، وأسلم، وأطاع، وشهد، وصنف في القرآن" ولتوراي (Torrey) "مفردات القرآن" .

دراساتنا المصطلحية في مواجهة سلبيات دراساتهم :

من خلال هذا العرض الموجز لبعض دراسات المستشرقين المصطلحية تبدو لنا أعمالهم إيجابية وسلبية في آن واحد. لكن سلبياتها أكبر من إيجابياتها، مما دفع بالمفكرين المسلمين إلى التعامل معها بحذر شديد، ومواجهتها والرد عليها - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - ثم خلف بدائل تحل محلها، خصوصاً بعد تطور الدراسات المصطلحية في البلدان الإسلامية .

فدائرة المعارف الإسلامية - على سبيل المثال - أدرك المسلمون مدى خطورتها بعد مراجعة كاملة لموادها، فعملوا على كشف أخطائها والرد عليها، وقامت لجنة مصرية بترجمتها، والتعليق على موادها في الهامش. بينما يرى بعض الباحثين ان التعليقات التي أوردت في الهامس ليس لها قوة المادة الأساسية المغلوطة، وتبقى التجربة التي قامت بها جامعة البنجاب في الهند، فريدة من نوعها حيث حذفت جميع المواد المنحرفة والمشبوهة وقدمت بديلا إسلاميا صحيحا عنها بأقلام علماء مسلمين، ثم ترجمت الدائرة بشكلها المصحح إلى اللغة الأوردية .

أما الأستاذ أحمد عطية فقد ألف القاموس الإسلامي كبديل للموسوعة الإسلامية الميسرة، وجعله موسوعة للتعريف بمصطلحات الفكر الإسلامي. ومعالم الحضارة الإسلامية، وتاريخ الدول الإسلامية، وتراجم الأعلام والمشاهير، مع التعريف بأشهر المؤلفات في المكتبة العربية والإسلامية، مرتبة ترتيباً أبجدياً وموضحة بالخرائط والصور والرسوم.

وقد صدرت أجزاء القاموس الإسلامي الخمسة مابين (1963 و1979). وقبله ظهرت دائرة معارف القرن العشرين في عشرة أجزاء من تأليف محمد فريد وجدي (ت 1954) وضعها بأسلوب يناسب الحاجة العصرية، لتكون كدائرة معارف لاروس الكبيرة وجعلها قاموسا عاما للغة العربية والعلوم النقلية والعقلية والكونية بجميع أصولها وفروعها. فضمت بذلك النحو، والصرف، والبلاغة، والمسائل الدينية، وتاريخ الفرق والمذاهب، والتفسير، والحديث،

والأصول، والتاريخ العام والخاص، وتراجم مشهوري الشرق والغرب، والجغرافية الطبيعية والسياسية، والكمياء، والفلك، والفلسفة، والعلوم الاجتماعية والاقتصادية والروحية، والطب والعلاج، وقانون الصحة، والفوائد المنزلية، وخواص العقاقير، وسائر مايهم الإنسان في جميع المطالب .

هذه إذن بعض الجهود القيمة، ومع ذلك لا يمكن اعتبارها إلا حلولا ترقيعية ومؤقتة في انتظار صدور دائرة معارف، أو موسوعة إسلامية جامعة وشاملة. وإلى حين تحقيق هذا المبتغى لم تتوقف جهود الباحثين والهيئات، بل ظلت متواصلة منذ بزوغ فجر النهضة الإسلامية الحديثة، مما أدى إلى صدور عدد كبير من الموسوعات الدينية. من ذلك :

- "قاموس المصطلحات الشرعية عربي فرنسي" لأبي القاسم بن سديدة الجزائري (الجزائر 1885) .

- "معجم فقه ابن حزم الظاهري" من إعداد لجنة موسوعة الفقه الإسلامي بكلية الشريعة جامعة دمشق (دمشق 1966) .

- "المعجم الصوفي" لعبد العزيز بن عبد الله (الرباط، مجلة اللسان العربي الصادرة عن مكتب تنسيق التعريف العدد 4 السنة 1966) .

- "موسوعة التاريخ والحضارة الإسلامية" للدكتور أحمد شلبي .

- "معجم مصنفات القرآن الكريم" لعلي شواخ إسحاق الشعبي (الرياض1984) .

- "موسوعة فقه السلف" لمحمد رواس قلعه جي، من بين ما صدر منها :

* موسوعة فقه أبي بكر الصديق .

* موسوعة فقه علي بن أبي طالب .

- "موسوعة الإجماع في الفقه الإسلامي" لسعدي أبو حبيب (بيروت ودمشق ، الطبعة الثانية 1984) .

- "القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً" لسعدي أبو حبيب (بيروت ودمشق ، الطبعة الأولى 1982) .

- "الموسوعة الفقهية" من إعداد وزارة الأوقاف الكويتية، صدر الجزء الأول والثاني منها سنة (1981 - 1982) .

أما على الصعيد اللغوي، فابتداء من القرن 19، انصرفت همم اللغويين إلى إعادة تأليف المعاجم العربية على نسق جديد يتفق مع مستحدثات الحياة العصرية فافتتحت، بذلك، حلقة جديدة في التأليف المعجمي، تنوعت أشكالها، وتعددت مناهجها، فظهرت معاجم تجارية، ومعاجم مندفعة بحب الظهور، ومعاجم مدفوعة من طرف دول أجنبية لتسهيل التفاهم بينها وبين ثقافتنا، ومعاجم شركات ومعاجم مؤسسات إلى غير ذلك من أنواع المعاجم التي غدا تعددها أمرا متعلقا مما جعل طالب المصطلح العربي عالماً كان أو متعلماً يقع في بلبلة لا تمكنه من الإهتداء إلى الصواب أو إلى الأقرب من الصواب .

ومع ذلك توجد بعض القواميس والمعاجم الجادة التي قامت بإنجازها المجامع اللغوية، ومعاهد البحث، والمنظمات في الوطن العربي. نذكر منها :

* المعجم العربي "الأساسي" الذي أصدرته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بتونس سنة 1988 بالتعاون مع مجموعة من كبار العلماء اللغويين والخبراء. وهو معزز بالشواهد والأمثلة من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والأمثال والعبارات المختلفة - حسب سياق استعمال الكلمة - ويتعرض في ايجاز إلى طائفة كبيرة من أسماء الإعلام، ويؤرخ للأحداث والأشخاص .

الهوامش

1- المستشرقون ج1، المقدمة.

2 - رودي بارت، الدراسات الإسلامية والعربية في الجامعات الألمانية، ص 9 (نقلا عن كتاب الأمة عدد 5 ص 20).

3 - مجلة اللسان العربي المجلد 7 ج 2 (يناير 1970) ص 162 - 163، ونجيب العقيقي، المستشرقون ج 3، ص 454 - 462.

4 - مجلة الفكر العربي / عدد 31، ج II، ص 175.

5 - مجلة اللسان العربي، المجلد 11، ج 1 (1974).

6 - مانفريد أولمان، معجم اللغة العربية الفصحى / مجلة الفكر العربي، عدد 32 سنة 1983، ص 175 - 176.

7 - المستشرقون ج 3، ص 453.

8 - المستشرقون ج 3، ص 453.

9 - جريدة العلم المغربية، عدد 16604 الجمعة 17 جمادى الأولى 1416 / 13 أكتوبر 1995.

10 - المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، مقدمة المجلد الثامن.

11 - السنة الحادية عشرة / مارس 1986.

12و13 - دائرة المعارف الإسلامية ج 2، ص 455 و 456.

14 - مجلة "منار الإسلام" العدد السادس، السنة الحادية عشرة، 1406 - 1986.

15 - ماسينيون، بحث في أصول المصطلح الفني في التصوف الإسلامي / المقدمة.

16 - في "حصيلة" الدراسات المحمدية" المجلة التاريخية، عدد 229، سنة 1963.

المصادر والمراجع

1- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، -د/ محمود حمدي زقزوق -، كتاب الأمة، ط 1، (1404 - 1984) .

2 - المستشرقون، - نجيب العقيقي -، دار المعارف، القاهرة، ط 4 - 1980 .

3 - مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم / تونس 1985 .

4 - محاضرات في تاريخ الإصطلاحات الفلسفية العربية، - لويس ماسينيون -.

5 - المصطلحات الصوفية مع ترجمتها إلى الفرنسية، - عبد العزيز بن عبد الله -، مجلة اللسان العربي، العدد الرابع، 1966 .

6 - موسوعة المستشرقين،-عبد الرحمن بدوي-، دار العلم للملايين،ط 1 - 1984.

7 - دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية للطبعة الأولى، دار الفكر .

8 - دائرة معارف القرن العشرين، - محمد فريد وجدي - ، دار المعرفة، ط 3 .

9 - القاموس الإسلامي، - أحمد عطية -، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة .

10 - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن،-محمد فؤاد عبد الباقي-، دار الفكر، ط 2- 1991.

11 - المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، مجموعة من المستشرقين .

12 - تفصيل آيات القرآن الحكيم، - جول لابوم -، ترجمة محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 2 .

13 - مفتاح كنوز السنة، - فنسنك -، ترجمة محمد فؤاد عبد الباقي، دار القلم، بيروت، ط 2 - 1985 .

14 - مجلة الفكر العربي، العدد 31 و 32 ، السنة الخامسة، 1983 .

15 - مجلة منار الإسلام، العدد 6 و 7 ، السنة 11، 1986 . تصدرها وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف بدولة الإمارات العربية المتحدة .

16 - مجلة اللسان العربي، الأعداد : 5 ، 7 ، 11 ، 16 ، 20 ، 22 ، 26 . يصدرها مكتب تنسيق التعريب بالرباط .

17-Louis Massignom,Essai sur les origines du Lexiques technique musulmane/Paris1954.

18-Encyclopédie de l'Islam, 2ème édition.

19-Bulletin historique, N 229, 1963.